ظلال من القذارة

من كتاب "الحكمة تجلس في الأماكن :
المناظر الطبيعية واللغة لدى شعب الأباتشي الغربي "(1996)

كيث هـ. باسو

تؤجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحرر

كيث باسو أستاذ في الأنثروبولوجيا بجامعة نيو مكسيكو . يدرس باسو اللغة والثقافة ، وقد شمل عمله أبحاثًا ميدانية مكثفة في أستراليا وجنوب غرب أمريكا . في هذه المجموعة المختارة ، يروي حوارًا دار عندما بدأ العمل مع مجموعة من شعب الأباتشي الغربيين المقيمين في سيبيكيو ، نيو مكسيكو . في أواخر خمسينيات القرن الماضي ، حصل باسو على منحة لرسم خرائط لأسماء أماكن شعب الأباتشي الغربيين ، في محاولة لدراسة تاريخهم الخاص المتجسد في هذه الأسماء والحفاظ عليه . يتحدث باسو مع مورلي وتشارلز وجيسون ، وهم من بين المتعاونين مع شعب الأباتشي الغربيين في مشروعه لرسم الخرائط ، حول كيفية اكتساب المكان المسمى "ظلال من القذارة" اسمه المميز .

يُشدد هذا المختار على أهمية سرد القصص بين هذه المجموعة من الأمريكيين الأصليين . وكما يُؤكد كتاب "الحكمة تسكن الأماكن" المُقتبس منه ، فإن هذه القصص المُستوحاة من المكان تعمل على خلق استمرارية تاريخية وأخلاقية بين مجموعة مُهددة دائمًا بفقدان هويتها في مواجهة الثقافة الأمريكية السائدة ، مما يُذيب الحدود بين هذا المكان المُحدد وهوية سكانه . ولأنّ للمحميات الهندية قوانينها وحدودها الخاصة ، يُمكن عدها ولايات داخل الولايات المتحدة الأمريكية الكبرى . بالإضافة إلى ذلك ، ولأن هؤلاء الناس يتشاركون شعورًا عميقًا بالانتماء مُتجذرًا في لغة مُشتركة وتجربة تاريخية ، فإنهم يُناسبون بوضوح تعريف الأمة . وهكذا، فإنّ شعب الأباتشي الغربي في هذا المقتطف يُمثل دولة قومية ، دولة تُخلق وتُحافظ عليها من خلال القصص ، ودولة تُواجه التفكك حيث يُغري إغراء الحياة خارج المحمية السكان بالمغادرة .

كان من المُمكن بالسهولة نفسها وضع "ظلال من القذارة" في قسم مُختلف من هذا الكتاب . ربما كان أحد هذه الأجزاء هو الجزء الثالث ، "المنظاهر الطبيعية" . تُقدم أسماء الأماكن ، أو الأسماء الجغرافية ، أدلةً مهمة على التاريخ المتداخل في المشهد الطبيعي . التسمية دائمًا ما تكون لفتة قوة ، وأسماء الأماكن ليست استثناءً . على سبيل المثال ، حقيقة أن أكثر من نصف أسماء الولايات الأمريكية مشتقة من كلمات أمريكية أصلية تُشير إلى الأهمية اللغوية والثقافية الراسخة للأمريكيين الأصليين في تاريخ الولايات المتحدة .

على الرغم من أن الثقافة السائدة في الولايات المتحدة تميل إلى تجاهل مساهمات الأمريكيين الأصليين أو التقليل من قيمتها ، إلا أن هذه المساهمات في الواقع مُشفرة في الأماكن نفسها التي تُكرر أسماؤها - غالبًا من قِبل غير مدركين لأصولهم - بشكل يومي . في مثال آخر، لاحظ كيف تتكون أسماء الأماكن على خريطة أنتاركتيكا في الغالب من أسماء المستكشفين أو الحكام الأوروبيين . فرض الغزاة والمستكشفون أسماء جغرافية على الأرض ، مُطالبين فعليًا بملكية المكان من خلال تسميته . في كل حالة ، تُعطينا أسماء الأماكن دلائل على من يملك حق ملكية المكان ، وبالتالي على السلطة والهوية . على الرغم من أن العمل على أسماء المواقع الجغرافية كان أكثر شيوعًا في عصور سابقة ، إلا أن جغرافيي الثقافة المعاصرين لم يُنجزوا سوى القليل نسبيًا من العمل عليها . ومن الاستثناءات المثيرة للاهتمام عمل كاثرين ناش عن أيرلندا ، في كتابها "أسماء

المواقع الأيرلندية : مواقع ما بعد الاستعمار" ، ضمن معاملات المعهد البريطاني للجغرافيين، المجلد 24، المجلد 4 (1999): 457-480.

الأشخاص الذين قابلهم باسو ليس لديهم تاريخ مكتوب . بل يستخدمون القصص لاستحضار أحداث تاريخية مهمة ، ولتوجيه الشباب في المجتمع نحو السلوك السليم . تُلخّص هذه القصص في أسماء أماكن ، مثل "ظلال القاذورات" ، وغيرها مما ذكره باسو في هذه المجموعة . بمجرد نطق اسم المكان ، تتكشف لحظة تاريخية كاملة أو حكاية أخلاقية ، دون الحاجة إلى سرد القصة كاملة . في هذه المجموعة ، يشير اسم المكان إلى تاريخ اكتساب "ظلال القاذورات" اسمه . وتندرج في هذا التاريخ حكاية أخلاقية عن أهمية المشاركة . رفض سكان "ظلال القاذورات" مشاركة الذرة ، وهو فعل قد يكون منطقيًا تمامًا لمن اعتادوا على فكرة تراكم الفائض . ومع ذلك ، في مجتمعات الكفاف مثل تلك الموصوفة في قصة "ظلال القاذورات" ، قد يكون لرفض المشاركة عواقب وخيمة على أفراد المجموعة . وهكذا ، فإن مجرد ذكر اسم "ظلال من القاذورات" يُذكّر الجمهور بمخاطر البخل .

وهناك قسم آخر كان من الممكن أن يُدرج فيه هذا الاختيار، وهو الجزء السابع ، "الاختلاف" . في الولايات المتحدة ، يُشكّل الأمريكيون الأصليون نسبة ضئيلة من الحاصلين على درجة الدكتوراه في الجغرافيا . قد يُفسر هذا إلى حد ما قلة أعمال الجغرافيين المتعلقة بالشعوب الأصلية . ومع ذلك ، فإنه لا يُفسر هذه الظاهرة بشكل كامل ، والتي ترتبط على الأرجح بالانغماس الثقافي للأمريكيين الأصليين وإسكاتهم في الثقافة الأمريكية السائدة أكثر من ارتباطها بندرة الأمريكيين الأصليين الحاصلين على درجة الدكتوراه في الجغرافيا . من أمثلة أعمال الجغرافيين الذين يركزون على الشعوب الأصلية مقال مات سبارك بعنوان "خريطة هديرية وأطلس أصلي : كندا ، رسم الخرائط ، وسرد قصة الأمة" ، في حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين ، المجلد 88 ، العدد 3 (1998): 463-495؛ وكتاب سارة رادكليف وسالي ويستوود ، "إعادة صياغة الأمة : المكان ، الهوية ، والسياسة في أمريكا اللاتينية "(1996) .

يؤكد كتاب "الحكمة تكمن في الأماكن" على أهمية القصص الكامنة وراء أسماء الأماكن . ولأن "الجغرافيا" تعني حرفيًا الجغرافيا ، أو كتابة الأماكن ، فإن الجغرافيا كلها تنطوي على سرد القصص . وبشكل أكثر تحديدًا ، يُعد السرد محور تركيز ناشئ لبعض جغرافيي الثقافة ، وخاصة أولئك الذين يدرسون صناعة الأماكن . تطرح الأعمال في هذا السياق أسئلة مثل : كيف تكتسب الأماكن ارتباطاتها أو "طابعها" الخاص ؟ كيف تتبلور التواريخ المثيرة للجدل في المظاهر الطبيعية ؟ كيف تتشكل الروابط بين المكان والهوية وتحافظ عليها بمرور الزمن ؟ من بين الأعمال الحديثة ذات التوجه الجغرافي في مجال السرد ، كتاب بيلدن لين "مناظر المقدس : الجغرافيا والسرد في الروحانية الأمريكية الأصلية" (1988) ؛ ومقال ويليام كرونون بعنوان "مكان للقصص : الطبيعة والتاريخ والسرد" ، في مجلة التاريخ الأمريكي 78، 4 (1992): 1347-1376؛ وكتاب سيمون شاما "المظاهر الطبيعية والذاكرة" (1995) ؛ وكتاب باتريشيا برايس "المكان الجاف: مظاهر الانتماء والإقصاء" (2004)؛ ومقال جون وايلي بعنوان "التحول إلى جليد : رحلات سكوت وأموندسن إلى القطب الجنوبي ، 1910-1913"، في جغرافية الثقافة 9 (2002): 249-265.

نحن الآن في منتصف شهر يوليو، وخرائطنا الطبوغرافية لمنطقة سيبيكيو تزدحم بشكل متزايد . تُشير عشرات النقاط والمناطق المظللة إلى مواقع الأماكن التي تحمل أسماء الأباتشي ، وتُشير الأرقام بجانبها إلى الأسماء نفسها ، والمدرجة في دفاتر منفصلة . يقول مورلي بإعجاب إن بعض الخرائط تبدو وكأنها تعرضت لطلقات نارية - وأكثر من مرة . يُعرب تشارلز ، المُعتدل كعادته ، عن موافقته بطرق أقل حماسًا . أما جيسون ، الذي يدرس الخرائط كلما سنحت له الفرصة ، فلم يُبدِ رأيه بعد . يُذهلني العدد المتزايد للمواقع

المُسماة - فقد رسمنا 109 منها في خمسة أسابيع فقط - والطريقة المُتسقة التي تتجمع بها ، خاصةً حول مصادر المياه ومواقع المزارع السابقة والحالية . لكن ما يُثير إعجابي أكثر من أي شيء آخر هو الصور الوصفية الغنية لأسماء الأماكن التي تُطلقها قبيلة الأباتشي الغربية . مؤخرًا ، وقد غمرني التأمل ، وقفتُ أمام تسي دوتميزه تيناهيجاها (صخور خضراء جنبًا إلى جنب تنحدر نحو الماء ؛ مجموعة من الصخور المكسوة بالطحالب على ضفة جدول) .

تسي ديت ميجي ناديتينيه (درب يمتد عبر صخور محروقة ؛ معبر في قاع وادٍ). تيس تسوسي بي إم ناغولغاييه (فسحة دائرية بأشجار حور نحيلة ؛ مرج.(توزي ياهيغاييه (بياض ينتشر ينحدر نحو الماء ؛ جرف من الحجر الرملي بجوار نبع). تسي ياديت ميشي (خط أزرق تحت الصخور؛ رواسب معدنية). ياهيمبيغي (صعود متقزم ؛ جبل صغير) . كايمباي بيم ناجوزودي (منحنى الصفصاف الرمادي حول منعطف ؛ نقطة على جدول) . وعدد من الأماكن الأخرى التي تُضفي أسماؤها المُصاغة ببراعة – جريئة ، بصرية ، مُثيرة - قوةً شعريةً على أصوات الأسلاف .

وعلى القدر نفسه من التعبير، تُعرف أسماء أماكن أخرى للأباتشي ، مختلفة عن هذه ، بأنها لا تُقدم وصفًا دقيقًا للأماكن التي تُشير إليها . وهي أسماء تذكارية بطبيعتها ومرتبطة بالقصص التقليدية ، إلا أنها تُشير إلى أحداث تاريخية تُلقي الضوء على أسباب وعواقب السلوك الاجتماعي الخاطئ . وبهذه الصفة المهمة ، كما اكتشفتُ في مكان يُدعى "ظلال القذارة" (تشا بي دامتوهيه)، فإنهم يُضفون على مشهد الأباتشي بُعدًا أخلاقيًا رصينًا ، مُظلمًا ولكنه مُفيد ، يُمكن لصانعي الأماكن استغلاله لتأثيرٍ عميق .

الظلال ، أو الأكواخ المُغطاة بالشجيرات ، لم تعد قائمة . يقول تشارلز إنها انهارت منذ زمن بعيد . ومع ذلك ، فإن المكان الذي وقفوا فيه ، وهو تلة مُغطاة بالأشجار جنوب غرب سيبيكيو ، ما يزال مُتجنبًا حتى يومنا هذا . "لا أحد يُريد المجيء إلى هنا" ، يُوضح ، بينما نقترب ببطء من نقطة مُراقبة على بُعد مئة ياردة . "كان لدى الناس الذين عاشوا هنا مزارع في الأسفل ، ربما بجوار الجدول . كان هذا بعد فترة طويلة من استقرارهم في هذا الوادي . ثم فعلوا شيئًا سيئًا ، سيئًا للغاية ، وكادوا أن يُهلكوا . هناك قصة عنها رواها لي جدي ، إنها قصيرة ".

وهي كذلك ، حدث هذا هنا في "ظلال القذارة" . كان لدى أولئك الذين يعيشون هنا الكثير من الذرة ، ولم يكن لدى أقاربهم سوى القليل . رفضوا مشاركتها . توسل إليهم أقاربهم ، لكنهم رفضوا المشاركة . ثم غضب أقاربهم وأجبروهم على البقاء في المنزل . لم يسمحوا لهم بالذهاب إلى أي مكان ، ولا حتى لقضاء حاجتهم . فاضطروا إلى ذلك في المنزل . امتلأت أكوامهم منها . ازدادت الكمية ! كان الأمر سيئًا للغاية ! مرض هؤلاء الناس وكادوا أن يموتوا . ثم قال أقاربهم : "أنتم من جلبتم هذا على أنفسكم . الآن تعيشون في ظلام القذارة !". أخيرًا ، وافقوا على مشاركة ذرتهم ، حدث هذا في "ظلال القذارة" .

خيم صمت مريب على مجموعتنا ، بدا جيسون شاحبًا فجأة ، بصق مورلي اشمئزازًا . نسمة هواء لطيفة ، تُذكّر برائحة كريهة لا يُمكن أن تحملها ، تُعكّر صفو هواء الصباح . عندما يتحدث تشارلز مجددًا ، يقول إنه يتساءل عما حدث هنا حقًا : لا يُمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة التي تُوحي بها القصة . وحتى لو كان كذلك ، يضيف ، فإن القصة لا تُعطي أي تفسير لسبب وقوع الأحداث على هذا النحو أو كيف كان رد فعل الأشخاص المعنيين عليها . "بماذا كانوا يفكرون ؟" يسأل بلاغيًا بنبرة تنم عن عدم التصديق . "بماذا شعروا ؟" يقول تشارلز إنه يرغب في معرفة هذه الأمور ، مع أنه يشك في أنه سيفعل ذلك يومًا ما .

ثم ، يتحدث كما لو كان يعرفها جيدًا ، يروي قصة جده مرة أخرى ، مُفصّلًا إياها بإسهاب ، خالقًا لنا عالمًا مذهلًا يكشف بلا شك عن قيم الأباتشي الاجتماعية ، ولكنه في الوقت نفسه مُسيء بشدة إلى أبسط

مشاعرهم . لا بد أن ذلك كان في أواخر الصيف . كان هؤلاء الناس قد حصدوا محصولهم من الذرة وجففوه وشوّوه . لا بد أنهم كانوا ممتنين وسعداء . يقولون : "الآن لدينا الكثير لنأكله" . حسدهم أقاربهم . لم تنمُ محصولهم من الذرة جيدًا . (أحيانًا يحدث ذلك . بعض الحقول تُنتج الكثير، بينما تلك المجاورة لها لا . يحدث ذلك ، ولا أحد يعرف السبب ، وأحيانًا يتحدثون عن السحر انتقامًا لشيء فُعل بهم في الماضي) . كان محصولهم من الذرة ضئيلًا وصغيرًا ، لكنهم لم يكونوا خائفين أو غاضبين بعد . قالوا فيما بينهم : "سيساعدنا أقاربنا الأكثر حظًا . لديهم ما يكفي من الذرة . سيرغبون في مشاركتها معنا . لطالما ساعدنا بعضنا البعض . هكذا ينبغي أن يكون الأمر" . ثم انتظروا أقاربهم لمساعدتهم . انتظروا دون جدوى .

احتفظ أقاربهم بذرة مزارعهم لأنفسهم ، يأكلونها يوميًا ، ويُحدثون ضجة كبيرة عندما يرحلون إلى الأدغال . لم يفعلوا شيئًا لأقاربهم ، مع أنهم لاحظوا محنتهم . "لديهم ما يكفي من الطعام ، مع أنهم لم يحصدوا سوى القليل من الذرة . ربما لديهم الكثير من الفاصوليا والقرع . بعضهم صيادون ماهرون . قريبًا سيكون لديهم الكثير من لحم الغزلان ليأكلوه . سنحتفظ بذرة مزارعنا لأنفسنا ، حتى لا يجوع أطفالنا خلال الشتاء . " الآن ، أصبح أقاربهم الفقراء خائفين ومتحيرين . قالوا : "لماذا لا يعرضون علينا المساعدة ؟" "إنهم يعاملوننا كما لو أننا غير موجودين ، وكأننا لا شيء بالنسبة لهم . سنواجه صعوبة ما لم يغيروا رأيهم ويعطونا بعضًا من محصولهم من الذرة . " ثم أرسلوا شخصًا ليتحدث إلى السكان هنا . قال لهم : "نحن أقاربكم ، يجب أن نساعد بعضنا البعض . لديكم الكثير من الذرة . لقد رأيناها ، لكن ليس لدينا سوى القليل ، وسرعان ما سينفد . قريبًا سيبكي أطفالنا لأنهم لا يملكون ما يأكلونه ، أعطونا بعضًا من محصولكم ، أعطونا بعضًا من محصولكم ، سنكون ممتنين . هكذا ينبغي أن يكون الحال ".

ثم انتظروا مرة أخرى ، وما زال أقاربهم لم يفعلوا شيئًا من أجلهم . تحدثوا مرة أخرى فيما بينهم . قالوا : "أقاربنا لن يساعدونا . " لقد أصبحوا جشعين وبخلاء . لا يفكرون إلا في أنفسهم . لقد وضعوا أنفسهم فوقنا ، متجاهلينا كما لو أننا غير موجودين . لقد انتظرنا طويلاً . يجب أن نفعل شيئًا ! ثم غضبوا على أقاربهم . "سنجبرهم على البقاء في منازلهم . لن يذهبوا إلى أي مكان . سنجبرهم على العيش مع برازهم الكبير!" هذا ما قرروا فعله . ثم جاؤوا إلى هنا وحاصروا منازل أقاربهم . وأمروهم بالبقاء هناك .

وفعلوا ذلك ليلًا ونهارًا . قالوا : "سنؤذيكم إذا حاولتم المغادرة" . "أنتم من جلبتم هذا على أنفسكم . يمكنكم أن تأكلوا ما تشاؤون . الآن فقط ستتغوطون في منازلكم . ليس هذا ما ينبغي أن يكون ، لكننا نفعله على أي حال" . ثم لا بد أن هؤلاء الناس ظنوا أنهم يمزحون . قالوا : "إنهم لا يقصدون حقًا ما يقولون" . قالوا : "لن يؤذونا" . فاختاروا رجلاً ليغادر منزله . أجبره أقاربه على العودة . حاول رجل آخر المغادرة ، فأُجبر هو الآخر على العودة . قالوا : "إنهم يقصدون ما يقولون" . فكروا : "الآن نحن في ورطة" .

ثم بدأوا يتغوطون في أكوامهم . قال بعضهم : "هذا أمرٌ سيءٌ للغاية . يجب أن نتقاسم ذرةً ونضع حدًا لها" . قال آخرون : "لا ! إذا تبرعنا ببعض ذرةٍ ، فسيطلبونها كلها . يجب ألا نستسلم لهم . هذه طريقتهم في تركنا بلا شيء". ثم قلّ أكلهم شيئًا فشيئًا ، لكنهم ما زالوا يُلوّثون مظلاتهم . ازدادت الكمية ! كانت ظاهرة في كل مكان ! لا مفرّ من منظرها ورائحتها ! كانت أسرابٌ وأسرابٌ من الذباب ! أسرابٌ هائلة ! لم يعودوا يطبخون في مظلاتهم . أصبح الأكل شيئًا يبغضونه . كان الأمر مُريعًا ! ثم بدأوا يُصابون بالمرض من رؤية ورائحة قذارتهم . كان بعضهم يُصاب بدوارٍ مستمر. و واجه آخرون صعوبةً في المشي بشكلٍ مستقيم . بدأ أطفالهم يتأوّهون . كانوا هم أنفسهم يتأوّهون . قالوا : "قد نموت من هذا ! قد نموت من قذارتنا" . ثم ذهب رجلٌ من القوم كان لديه القليل من الذرة وتحدث إليهم . قال : "أنتم من جلبتم هذا على أنفسكم" . كان عليك أن تشاركنا الذرة حالما علمت أن لديك ما يكفيك . لم تفعل هذا ! لم تعطنا شيئًا على الإطلاق . كنت جشعًا

وبخيلًا ، لا تفكر إلا في نفسك . لهذا السبب توسّلنا إليك أن تشاركنا الذرة . حتى حينها ، لم تفعل شيئًا . استمررت في الأكل ، أكثر فأكثر، مدركًا أن لدينا القليل من طعامنا . تجاهلتنا - أقاربك - كما لو كنا لا شيء ! ليس هكذا ينبغي أن يكون الأمر . كأقارب ، نثري بعضنا البعض لأننا نساعد بعضنا البعض في أوقات الحاجة .

لقد كان الأمر كذلك منذ البداية . ما الذي جعلك تنسى هذا ؟ ما الذي جعلك تتجاهلنا ؟ حسنًا ، لا أعرف . لكنك الآن تعيش في حالة يرثى لها ! الآن تمرض ! ثم ضحك عليهم ، ضحك عليهم . ثم تحدث هؤلاء الناس فيما بينهم . قالوا : "ما يقوله صحيح" . انظروا ماذا حل بنا ! كنا نفكر في أنفسنا فقط . جشعنا هو المسؤول عن مشاكلنا . احتقرنا أقاربنا ولم نعطهم شيئًا . انظروا ماذا حل بنا ! ثم تقاسموا الذرة . أخيرًا ، فعلوا هذا . أخذ أقاربهم الذرة ، صامتين . الآن سُمح لهؤلاء الناس بمغادرة منازلهم . ثم قال هؤلاء الناس : "يجب أن نغادر هذا المكان ونذهب إلى مكان آخر للعيش فيه . هذا مكان سيئ . تفوح منه رائحة بخلنا وجشعنا. " "كان من الممكن أن يحدث ذلك ،" قال تشارلز بعفوية تقريبًا . ثم ، بصرامة طفيفة ، "لنمضِ قدمًا ، لقد طال بنا البقاء هنا . "